1- مفهوم الاغتراب:

أُشتقت كلمة اغتراب من كلمة استلاب ALIENATION في اللغة الفرنسية، و هي كلمة موجود في اللغة الإنجليزية منذ قرون، بمدى واسع من المعاني، و هي مأخوذة من اللاتينية alienationem، و قد استخدمت في الإنجليزية منذ القرن الرابع عشرة لوصف فعل الإقصاء، أو الإبعاد. بخصوص القطيعة مع الإله. أما في القرن الخامس عشر فقد استعملت لتدل على نقل الملكية من طرف لآخر. و قد توسع مفهوم الكلمة ليعني فقدان و تراجع أو تعطيل المقدرات الذهنية، و بالتالي الجنون.

أما في القرن العشرين فقد استعملت بطريقة رئيسية في سياقين محددين:

- نقل ممتلكات رسمية alienation.
- استلاب العاطفة alienation of affection.

أدت كل هذه المعاني إلى جدل و اختلاف مطولين في داخل و خارج كل نظام، إلى استعمال معاصر أكثر انتشاراً هو المشتق من أحد أشكال السوسيولوجيا: فقدان الاتصال بحاجات و شعور الذات العميقة.

و هناك تصنيفات حديثة من مثل:

1- العجز powerlessness.
2- فقدان المعنى meaninglessness.
3- فقدان النموذج normlessness.
4- الانعزال isolation.
5- الاغتراب الذاتي self estrangement.([1])

أما الاغتراب في العربية فنجد معناه قد اكتمل في الكلمة "غربة"، حيث عرف العرب الاغتراب المادي، و الاغتراب الحسي، و بينوه على أنه «الارتحال عن الوطن، و البعد و الهجر، والانفصال عن الآخرين، و هو مفهوم اجتماعي بلا شك. غير أن هذا الانفصال لا يتم دون توافر

[1] - ينظر ريموند وليمز، الكلمات المفاتيح. تر: نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2007، صص: 42-46.

أبعاد هذا الانفصال و مؤثراته سواء على المستوى الداخلي أو المستوى الخارجي كالكبت، أو الخوف، أو القلق، أو الحرمان، أو العجز عن إتمام غاية»([1]).

ليس غريباً أن يكون الإنسان غريباً عن وطنه، أو بعيداً عنه لأنه على المستوى المادي، قد يكون هذا البعد لسبب سياسي، و قد يكون للتنزه مثلاً، و بالتالي ينتقل المفهوم من الاغتراب إلى الغربة، لأن الغربة تكون على المستوى المادي، فحضور «العناصر المكانية يمنح الأدب خصوصيته و أصالته، أما غيابها فيعطي الفرد إحساساً بالغربة عن العالم»([2]) الذي يعيش فيه، كما ذهب الكثير في تحديدهم لهذا المصطلح على أنه يتمثل في الانفصال عن الذات، و العزلة، و قد ذهب الكثير من الفلاسفة إلى استعمال الكثير من المصطلحات مثل الوحدة، الانعزال، الانفصال، الانخلاع، التخلي، الابتعاد، التجنب، الانتقال، الانفصام، و البعض الآخر «يؤرخ لاغتراب الإنسان منذ تلك اللحظة المتعالية التي غربت فيها الجنة بنعيمها السرمدي عن آدم عليه السلام. اغتراب الإنسان يبدأ منذ أن عصى آدم ربه، و نزل إلى الأرض مغترباً عنها و عن المعية الإلهية. تلك هي أول مشاعر الاغتراب»([3]).

أما عبد الإله الصائغ فيرى في كتابه "الخطاب الشعري الحداثوي و الصورة الفنية" أن الاغتراب هو «موت الصبر و انبعاث الحلم المستحيل، الحنين إلى الماضي. النص المغترب شاذ كتبه شاذ لمجتمع شاذ، الغربة عن الطبيعة و المجتمع و الأصحاب و الذات جزء من تصاعد المبدع في معراج النمو - الاغتراب كامن في كل الأزمنة و الأمكنة و الحضارات و لكن تعبيراته مختلفة»([4])، فالكاتب عندما يتذكر الماضي، أو عندما يعود إليه، ذلك ليبلور رؤية للحاضر الذي يعيش فيه، وذلك من خلال علاقة الإنسان بالمكان و بتاريخه، لأن الهجرة تعني ترك المكان والتخلي عن الذات، و بالتالي التخلي عن الهوية و عن الحرية، لأن الهوية و الحرية لا معنى لهما من دون المكان.

أما "هيغل" فقد ربطه بالدولة باعتبارها «الفكرة الشاملة في الحياة السياسية، فالفرد يغترب حين يشعر بالتناقض بينه و بين الدولة. بين ذاته الفردية المنشغلة بأمور الحياة اليومية و الذات الكلية

---

[1] –حسن سعد، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1986، صص: 10.

[2] – رشيد نظيف، الفضاء المتخيل في الشعر الجاهلي، م، س، ص: 17.

[3] – محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، دط، 2004، ص: 7.

[4] – عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحداثوي و الصورة الفنية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999، ص: 301.

المدركة لحقيقتها الخالدة المتمثلة في حياة المدنية و الإرادة العامة، و هذا التناقض أو الانفصال بين الذات الفردية و حقيقتها الكلية هو الذي يولد الشعور بالاستلاب أو الاغتراب alienation»([1]).

في حين ذهب "ماركس" إلى أن الاغتراب ناتج عن ظلم الحياة الاجتماعية و علاقات الإنتاج؛ أي أن ينفصل العامل عن إنتاجه و ملكيته لوسائل الإنتاج، و منه الاغتراب عما ينتج.

أما "فرويد" فيرى أن هناك تعارضاً بين الحضارة و الإنسان الذي ينتجها، و بالتالي فهي التي تعمل على كبت غرائزه و رغباته، و منه فهذه الضدية هي التي تولد الاغتراب عن الذات([2]).

لكن "لوكاتش" يرى أن «الفنان لا يرسم في عمله الفني إنساناً أحادي الجانب مغترباً، بل يرسم إنساناً كلياً شمولياً قاهراً لاغترابه و تشيؤه، و هذا مصدر الجمال»([3]).

و هو عند "هيراقليدس" : «البحث عن النفس»([4]).

و في الحقيقة أن الاغتراب عرف مفهومات سابقة عن "هيغل" باعتباره أول من أصل لهذا المصطلح، و من هذه المفاهيم، ما يلي:

أ- بمعنى نقل الملكية: و معنى هذا جعل الشيء ملك لشخص آخر.

ب- بمعنى الاضطراب العقلي: أُستعمل هذا المصطلح في المجال الطبي لمفهوم فقدان الوعي أو قصور القوى العقلية، إلا أن هذا الاستخدام غير شائع في الفترة الحالية.

ت- بمعنى الغربة بين البشر: و هنا يعني فقدان الألفة بين البشر، و هذا الاستخدام هو الأقرب إلى الاستخدامات المعاصرة. التي تتفق على أنه التناظر أو الانفصال عن الذات أو المجتمع، وهو ما ذهب إليه علماء النفس بالتمييز بين الاغتراب عن الذات و الاغتراب عن المجتمع:

1. **الاغتراب عن الذات:** و هو عندما ينفصل الفرد عن ذاته من خلال طمسها جراء ضغوطات المجتمع بنظمه و أعرافه.

---

[1] - محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، ص: 7.

[2] - ينظر المرجع نفسه، ص: 8.

[3] - مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال و الاغتراب، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، دط، 1997، ص: 95.

[4] - عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحداثوي و الصورة الفنية، م، س، ص: 300.

2. **الاغتراب عن المجتمع**: و هو رفض الفرد لقيم المجتمع، و أعرافه و تقاليده. وسنأتي إلى تفصيل ذلك.

للاغتراب ظواهر متعددة، منها الشعور بالعزلة و اللامعيارية، و الإحساس بالعجز، وفقدان المعنى، و التمرد، و فقدان الهدف، لأن هذه الظواهر هي التي تساعد على فهم الاغتراب، و من الظواهر التي أشار إليها كل من "ماركس" و "سارتر" ظاهرة التشيؤ Refection، بوصفها استلاباً لعالم الذات حيث ينظر للفرد على أنه شيء جامد يباع و يشترى، و هنا يفقد الفرد هويته.

أما بالنسبة للامعيارية(*) فإنها ترتبط بتبدل القيم المستقرة في المجتمع لتحل مكانها قيم مادية تصيب الفرد بحالة من عدم الاستقرار، و عجز الفرد عن مواجهة الأحداث السياسية، والاجتماعية، ليسيطر اللامعنى، أين يشعر الفرد بأن الأمور تسير وفق عبثية لا معنى لها، و بالتالي التمرد على المجتمع، و الانفصال عن معاييره الحضارية و التاريخية في شكل سلوك يتصف بالعنف والعدوانية ضد القيم الإنسانية و الاجتماعية السائدة.(1) و هذا ما تسعى الرواية إلى بلورته حتى يمكن التحكم فيه و تجاوزه.

إن الظواهر السالفة الذكر ترتبط باللاهدف، أين تفقد الحياة معناها، لأنها تمضي إلى اللاغاية، حيث يفقد الفرد مبرر وجوده، و يرى ألا فائدة من مواصلة الحياة. إلا أن هناك من ذهب إلى عدم الإسراف في هذه التحديدات و الظواهر، و من بينهم صلاح مخيمر الذي ذهب إلى أن الحياة هدف و معنى واضح يسعى الفرد إلى إدارته، و يشير إلى أن الاغتراب هو نوع من الاضطراب في علاقة الفرد بنفسه، و بمجتمعه، و ما دام أن «المعنى يرتبط بالهدف و القيمة فإن أبعاد الاغتراب ينبغي ألا تزيد على ثلاثة أبعاد، هي:

1. تحديد المعنى.
2. الهدف.
3. القيمة.

---

* - يقترن مفهوم اللامعيارية كثيراً بمفهوم الأنوميا Anomie عند دوركايم. و هو يعني اهتزاز القيم و المعايير داخل المجتمع نتيجة الانهيار الذي قد يلحق بالبناء الاجتماعي و اتساع الهوة بين أهداف المجتمع و قدرة الفرد على الوصول إلى هذه الأهداف. ينظر محمد عباس، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، ص: 24.

1 – ينظر محمد عباس، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، صص، 22-25.

فالمغترب يشعر بأن حياته فارغة من المعنى و الهدف و أنه عاجز عن تحقيقه قيمه الخاصة وفرضها على الواقع الذي يعيشه»[1]، لأن فقدان المعنى، هو أن يشعر الإنسان بالملل و الضيق والخواء الداخلي، و فقدان الحيوية، و الولع بالحياة، و العجز عن فهم الذات، و الغموض، وإحساس الفرد بأن حياته تافهة تسير على نحو غير منطقي، و «تتحدد ملامح المغترب في أنه وحيد، فَقَدَ سلام الانسجام مع محيطه أو مع ذاته لسبب ما. وصلات المغترب مع مُثل مجتمعه ضعيفة أو معدومة، في حين تكون صلاته مع حياته الداخلية قوية و في تنامٍ مستمر. و إزاء هذه الحال التي انسلخ فيها المغترب عن نظام المجتمع الأبوي لابدّ أن يعيش وضعاً مختلاً، ينعدم فيه الاستقرار و تسوده المعاناة الدائمة»[2] و بما أن المجتمع لا يعترف إلا بذاته، و الذات لا تعترف إلا بذاتها فلا توجد هناك مشاركة فعلية بين المغترب و مجتمعه، و بالتالي فقدان الهدف الذي تعيش من أجله، و تسعى إلى تحقيقه. لأن وجود هذا الهدف هو ما يدفع الفرد إلى التواصل مع ذاته و مع مجتمعه، لأن غياب الهدف يؤدي إلى غياب المعنى، و بالتالي عدم تحقيق الفرد لقيمه، تلك القيم التي يسعى الفرد لأن يحافظ عليها. إنها القيم التي لا تناقض قيم المجتمع، لأن الاغتراب حسب "ستارك" و "كوجيل" و"روكتش" ينشأ من التعارض و التناقض بين القيم؛ قيم الفرد و قيم المجتمع الذي يعيش فيه، وإحساسه بعدم إحداث أي تغيير إيجابي في حياته، «و في المحيط الذي يعيشه، و كذلك العجز عن قيام بإنجازات حقيقية تعبر عما يعتقد أنه قيمة من القيم الأساسية، فضلاً عما يراه في الناس من افتقاد واضح لقيم الحق و الخير و الصدق و العدل و احترام الذات و الكرامة»[3].

2- الأصول الفلسفية للاغتراب:

أشار "هيغل" في مناقشته للاغتراب، إلى الوحدة بين الأفراد التي يمكن الوصول إليها من خلال الحب، و أن الفكرة القائلة بالوحدة تتطلب التجاوز الكامل للفردية التي تظهر في "ظاهريات العقل الكلي" التي تقوم على العلاقة بين الفرد و العالم الاجتماعي، حيث تنطلق هذه الظاهريات مع "هيغل" في تطور العقل الكلي البشري الممتد من الماضي و حتى العصر الذي نعيش فيه، حيث يرى

---

[1] – المرجع نفسه، ص: 26.

[2] – خالد المصري، غائب طعمة فرمان (حركة المجتمع و تحولات النص)، م، س، ص: 177.

[3] – محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، ص: 28.

"هيغل" أن العالم الذي نعيش فيه من إبداع الإنسان الذي أنتج البنية الاجتماعية التي تتمثل في المؤسسات الاجتماعية و السياسية و الثقافية([1]).

أما "أفلاطون" فيؤكد أن الجمال ما يأتي من خلال حاستي السمع و البصر لاقترانهما بالعقل الذي يميز بين المحسوسات، و عليه يربط أفلاطون بين العقل و الجمال ، ذلك أن الجمال عنده يعمل على حل إشكال «فضاء اغتراب الإنسان و انفصاله عن ذاته الحقيقية و النسيج الاجتماعي للواقع الخارجي»([2]).

و يشير "هيغل" أن الاغتراب ليس مرضاً، بل هو «نبض قلب حياة الروح (...) بالإنتاج يضاعف الإنسان ذاته، و يرى ذاته في موجود خارجي (...) فإذا رأى فيه ذاته الإبداعية الحقيقية التحم معه و تناغم مع العالم (...) و إذ وقف إنتاجه ضده و استقل عنه و أصبحت له قوانينه الخاصة تشيّأ الإنسان و فقد ذاته و انفصل عن العالم»([3]).

إن مفهوم الاغتراب لدى "هيغل" في ظاهريات العقل الكلي يستخدم مصطلحين مختلفين، هما :

2/1- الاغتراب بمعنى الانفصال أو الانقسام و عدم التعرف على الذات، و هو معنى سلبي.

2/2- الاغتراب بمعنى التخارج أو التموضع، و هو اغتراب ضروري و إيجابي، و هذا هو المفهوم الأساسي في ظاهريات العقل الكلي، لأن التخارج هو الشرط الضروري للوجود: وجود الطبيعة و التاريخ، و أنه شرط لمعرفة الذات.

أما الاغتراب بمفهوم الانفصال، فهو مفهوم جزئي غير عام، ينشأ نتيجة ظروف تاريخية بالغة السوء، و يتميز بفقدان الحرية، و لهذا كان من الضروري قهر الاغتراب الذي جاء بهذا المفهوم السلبي.

3- الاغتراب من منظور علم النفس:

رائد هذا التوجه هو "فرويد" الذي نظر إلى الاغتراب «باعتباره الأثر الناتج عن الحضارة، فالحضارة التي أسسها الإنسان دفاعاً عن ذاته، إزاء عدوان الطبيعة جاءت على نحو يتعارض وتحقيق

---

[1] - ينظر المرجع نفسه، ص: 39.

[2] - مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال و الاغتراب، م، س، ص: 82.

[3] - المرجع نفسه، ص: 124.

أهدافه و رغباته»[1]، ذلك أن الاغتراب في نظره ينشأ نتيجة الصراع بين الذات و ضوابط المدينة والحضارة، و من هنا تتولد لدى الفرد مشاعر الضيق و القلق و الحيرة، و بالتالي فإن هذه الظروف الصعبة هي التي تؤدي إلى الكبت الذي يؤدي إلى الشعور بالقلق و الاغتراب، «و الاغتراب هنا ليس اغتراباً عمرانياً فحسب. الناس يغتربون عن واقعهم السابق مثلما تغترب المدينة عن طينها القديم. يدخل الناس في التعليم و في الكهرباء و يختلطون بغرباء جاؤوا من كل مكان. إحدى نتائج ذلك الاغتراب التحديثي هو تواري الذاكرة الأسطورية للناس إذ يدخلون طور التمدن، ينسون حكايات كان الخيال ينسجها في ظلام القرى و بين أشباح النخيل المحيط بالبيوت»[2]، وينسون طقوسهم و عاداتهم ليتأثر الموروث الديني.

أما "إريك فروم" فقد تجاوز التعريفات التي ذهب إليها "ماركس"، حيث اهتم بالاغتراب ليصف علاقة الفرد بنفسه، و علاقته بالآخرين و علاقته بالأشياء الأخرى كالحب و الأمل و الفكر و العمل و اللغة و الثقافة...الخ. إلا أن تركيزه جاء على المجالات التالية: الاغتراب عن الآخرين، الاغتراب عن المجتمع، الاغتراب عن الذات.

إلا أن "إريكسون". يرى أن الاغتراب هو الشعور بعدم تعين الهوية، أين يقف المراهق بين جانبين مختلفين، أحدهما إيجابي، و الثاني سلبي، و أن الإيجابي هو الذي من خلاله يمكن للفرد أن يثبت هويته من خلال مسؤولياته و إنجازاته الخلاقة، و بالتالي يكون من "منجزي الهوية". أما الجانب السلبي فيعني، أن الفرد فشل في فهم نفسه، و معرفتها، و أنه يعاني من عدم وضوح هويته، و عدم معرفته في الوقت الحاضر، و ما يمكن أن يكون عليه في المستقبل، و بذلك يدخل هذا الفرد في فئة الأشخاص "مشتتي الهوية"، و قد ذهب "إريكسون" في تصنيفه للهوية انطلاقاً مما ذهب إليه "مارشيا" الذي صنفهم إلى أربع رتب هي:

3-1- مشتتو الهوية: و هم الذين لم يكتشفوا هويتهم بعد. و لم يمروا بهذه الأزمة.

3-2- منغلقو الهوية: و هؤلاء كذلك لم يمروا بهذه الأزمة، و لكنهم تبنوا معتقدات مكتسبة مع الآخرين، و القبول بهذه المعتقدات.

[1] – محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، ص: 57.

[2] – سعد البازعي، سرد المدن (في الرواية و السينما)، م، س، ص: 61.

3-3- معلقو الهوية: و هم الأشخاص الذين مروا بأزمة الهوية، و لكن لم يكونوها بعد.

3-4- منجزو الهوية: و هم الذين مروا بأزمة الهوية، و انتهوا إلى تكوينها حيث يرى "إريكسون" أن أعلى رتب الهوية نضجاً "معلقو، و منجزو الهوية".

إن الاغتراب لدى مشتتي الهوية ، و منغلقي الهوية، هو اغتراب رجل الحياة اليومية من حيث الذات التائهة، و هو أن يتصرف الفرد مثل الناس بحيث يصبح نسخة من كائن لا هوية له؛ أي أنه يقيس الأمور بمقياس الناس ناسياً وجوده كذات مستقلة، و هذا النوع من الاغتراب، اغتراب مرضي.

أما الأفراد معلقي الهوية فإنهم يشعرون باغتراب الذات، كاغتراب العالم و الفنان، و هو ما يعرف بالاغتراب الإيجابي، بينما المرتبة الرابعة المتمثلة في الأشخاص منجزي الهوية، فهؤلاء قد حققوا الذات بعد أن مروا بأزمة الهوية و تجاوزوا اغترابهم، ذلك أن الفرد يسعى إلى التزام أيديولوجيته و قيمه الخاصة، و بالتالي السمو بذاته، و غالباً ما يكون ذلك في النشاط الإبداعي، و لاسيما الإبداع الفني، و الأدبي الذي يتيح للفنان المبدع توصيل مضمون فكري أو رمزي للآخر. مضمون يعبر عن قيمه و أفكاره و موقفه من العالم و الوجود.

و ترى "كارين هورني" أن اغتراب الذات يتضمن قمع الفردية و العفوية لدى الفرد. وبعد مضي ست سنوات على ما قالت. تناولت "هورني" الاغتراب عن الذات في أنه اختلاط مشاعر الفرد فيما يحب و فيم يكره، وضع يكون فيه الفرد غافلاً عن ذاته الحقيقية و قد حددت "هورني" ذلك بالمثال التالي: أن يحقق فرد ما مركزاً مرموقاً بطرق ملتوية. فهذا التباهي بمكانته الجديدة هو ما يخلق لديه الاغتراب عن ذاته الحقيقية.

تعود "هورني" إلى التمييز بين نمطين من الاغتراب، هما:

3/أ- **الاغتراب عن الذات الفعلية:** و هذا النمط يتضمن إخفاق الفرد في الإفراط بوجود ذاته، ويرتبط بفقدان الشعور، مثل الشعور بخجل الفرد من تصرفاته، وبالتالي كراهية الذات.

3/ب- **الاغتراب عن الذات الحقيقية:** و هذا النوع يعني الاغتراب عن المركز الأكثر حيوية لذواتنا والحرمان من الوصول إلى هذا المصدر للطاقة، و في هذا النمط تصبح الذات و كأنها متخلى

عنها، و منسية و مقضي عليها...الخ، و هنا يتم التركيز على الذات الحقيقية و استبعاد الذات الفعلية، لأن الحقيقية نالت اهتمام الباحثين أكثر من الفعلية([1]).

أما "ماي" فيرى «أن المبدعين يحتضنون مجموعة من القيم ليست هي في معظم الأحوال على وئام مع القيم السائدة في المجتمع مما يجعل المبدع في حالة من الغربة و القلق. و لكن هذه الغربة أو الاغتراب يمثل أحد العوامل الدفاعية التي تؤدي إلى الخلق و الإبداع»([2])، حيث يحقق الفنان المبدع قيمه الخاصة به فيما يبتكر و يبدع، و منه يتوجب علينا «التأكيد على القيم المؤسسة للكائن الإنساني المحافظ على هويته، و هذه القيم هي الإبداع، و الشعر و الحب، و الصداقة، والجمال»([3])، ذلك أن الجمال يتولد مع القدرة على تصوير المآسي الناتجة عن تحول الإنسان إلى شيء، و تحول العلاقات التي تربط بين الناس، إلى علاقات بين الأشياء. فالجمال رفض لهذا الانفصال، لأنه - أي الجمال - يعمل دوماً على تكسير هذا الانفصال، و الدعوة إلى الاتصال، وعليه يصبح الجمال كوسيلة لإنقاذ النفس من الانفصال، و بهذا يتحرر الإنسان من الانفصال والفقدان. و قد أشار "أفلوطين" إلى قضية الجمال حيث يقول فيه: «من العقل تستمد النفس جمالها، أما أنواع الجمال الأخرى، مثل الأعمال و النوايا فإن جمالها مستمد من النفس، و لأن النفس إلهية، و لأنها جزء من الجمال. فإنها تجعل كل ما تمسه و تسيطر عليه جميلاً، على الأقل في حدود قدرة الشيء على تلقي الجمال»([4]).

إن الجمال لا ينتج من التصوير الواقعي بل من التصوير الحقيقي، فليس كل ما هو واقعي حقيقي، فالأستاذ في الجامعة هو أستاذ في الواقع، و لكنه لن يكون كذلك في الحقيقة ما لم يمارس رسالته في أن يساعد الطلبة على أن يدخلوا معه في حوار جاد، دون فرض أرائه، و عندها يصبح الحقيقي واقعياً.

---

[1] - ينظر محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، صص:58-69.

[2] - المرجع نفسه، ص: 75.

[3] - أدونيس، بالتعاون مع شنتال شواف، الهوية غير المكتملة (الأبداع، الدين، السياسة، و الجنس)، تعريب: حسن عودة، بدايات للطباعة و النشر و التوزيع، سورية، ط1، 2005، ص: 45.

[4] - مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال و الاغتراب، م، س، ص: 33.

4- أشكال الاغتراب:

لا يكون الاغتراب فقط بين الذات و مجتمعها بل يكون كذلك بين الذات و ذاتها، ذلك لأن المغترب هو «ذلك الذي يفتقد لحالة الانسجام أو التصالح بينه و بين ذاته، أو ذواته العديدة التي تمثل حالات تفكيره المتعارضة إن جاز التعبير. و أقرب ما يمكن وصف هذه الحالة به هو ضياع الأنا بعد أن يكون الإنسان قد وصل إلى مرحلة يصعب معها استيعاب نوازع الذات وتحديد غاياتها»[1] و بذلك للاغتراب أشكال كثيرة جاءت من خلال أيديولوجيات المثقفين التي تختلف عن أيديولوجية المجتمع، و هي التي حددها "هيغل"، و من أهمها:

4/1- الاغتراب عن المجتمع أو البنية الاجتماعية.

4/2- الاغتراب عن الوجود المستقل.

4/3- الاغتراب عن الذات.

و بعد الدراسة و البحث تمّ إضافة بعض الأشكال الأخرى التي تمثلت في:

4/4- الاغتراب السياسي.

4/5- الاغتراب الاقتصادي.

4/6- الاغتراب الديني.

4/1- الاغتراب عن المجتمع:

و هو أن الفرد يفكر من خلال الجماعات التي ينتمي إليها، أي علاقات الأفراد بالبنية الاجتماعية، و هي علاقة وحدة كاملة و فورية. لأن انحراف الذات، و فقدانها لوجودها الأساسي يؤدي إلى علاقة تناظر و اغتراب، و بالتالي عدم التطابق بين الذات و البنية، حيث يجد الفرد نفسه غير قادر على تحقيق رغباته، و تطلعاته مما يدخله في مجال العزلة الاجتماعية، و سبب هذه العزلة هنا هو الأنظمة الفاسدة التي لم يشترك في صياغتها الفرد، بل هي أنظمة مفروضة عليه، و بعد عدم اعتراف كل من الذات و المجتمع ببعضهما ينشأ هناك اختلال اجتماعي، و منشأ هذا الاختلال «هو أزمة معايير تصيب المجتمع في مراحل نموه المختلفة. فالعالم الذي يعيش فيه الإنسان هو من ابتكاره، كما أن النظم السياسية و الحضارية و الاجتماعية هي الجوهر الاجتماعي الذي بلوره

[1] - خالد المصري، غائب طعمه فرمان (حركة المجتمع و تحولات النص)، م، س، ص: 118.

الإنسان أيضاً»([1])، و من القضايا التي تشعر الفرد بالحرمان هو ذلك الانقسام الذي يكون بين الفرد و مجتمعه بسبب شعوره بالحرمان و فقدان الأمل، و العزلة، و ذلك عند الشعور بعدم تحقيق أهدافه الذاتية، و هذا ما ينطبق على "الحسين بن المهدي" في عزلته التي ساقته إلى الجنون، وعدم تحقيق رغباته، فأصبح مغترباً عن مجتمعه و هو ما تظهره السطور التالي:

-«أوف. أنا لا أبرر. أنا منكسر و مخي معطل. أنا أقرأ واقعاً مازال غامضاً برأسي. و حتى لو لم أقدم استقالتي كانوا عزلوني أو أحالوني إلى الصفحة الميتة. لم أخسر غير ترددي. سأقوم بالتحقيق. سأبحث في كل التفاصيل حتى و لو كلفني ذلك رأسي. سأبحث في حياة هذا الرجل المبهم الذي يعيش بيننا و لا أحد يتجرأ على سؤاله عمن يكون؟ هل علينا أن نحبه أم علينا أن نكرهه؟ و سأدخل المستشفى التجميلي و لو اضطررت إلى ركوب الحيطان العالية. هل بقي أمامي شيء آخر أخسره؟ لا شيء»([2]).

هذا النص يشير إلى الاغتراب الاجتماعي، و المتمثل في عزل هذا الصحفي عن إتمام التحقيق الذي باشره حول إثبات وطنية أبيه الشهيد، و منها حوّل من موقعه بالجريدة ثم وصف بالحنون، ليهمش و يُتجاوز، و بالتالي أصبح مغترباً في مكان عمله، و سجين قناعاته الذاتية، والسبب في ذلك هو أن السلطة تسعى لضبط الواقع، و قمع موظفيها الذين لا يجدون إلا الارتهان لمتطلباتها قسراً، أو اللهاث وراء مغرياتها، و منه يعاني هؤلاء من تغييب إراداتهم، و استلاب ذواتهم على الدوام، و هو ما وقع فيه "الحسين بن المهدي بن محمد" حينما سعى وراء كشف الأوراق، لإثبات وطنية أبيه، ليُتهم بعدها بالجنون، و يعجز عن امتلاك موقع مع السلطة، هذا الموقع الذي يسمح له بتحقيق ذاته بشكل واسع، أما الذين استطاعوا تحقيق ذواتهم هم الذين وقفوا مع السلطة، من أمثال مدير الجريدة.

إن هذه الشخصية المحورية تشعر بالاغتراب عن مجتمعها. إنها تعيش تحت سلطات متعددة تسلبها قوتها و إرادتها و تمارس عليها أوامرها، و هي بذلك ترتهن للغير مادام أنها لا تملك زمام ذاتها بشكل كامل، إنها محاطة بسلطة الدولة، و بسلطة مدير الجريدة، و منه فمصدر الاغتراب هو عدم استطاعة "الحسين" ممارسة دوره الحقيقي كصحفي، و قضية الاغتراب هذه لا تتوقف عند هذه

[1] – خالد المصري، غائب طعمة فرمان (حركة المجتمع و تحولات النص)، م، س، ص: 117.

[2] – ضمير الغائب، مص، س، ص: 37.

الشخصية، و إنما تشمل أغلب شخصيات واسيني الأعرج، إن لم يكن كلها، حيث «تحاول أن تصل إلى ذاتها، إلى إدراك حقائقها بصورة حيّة و أكثر فاعلية، إلا أن وضعها النفسي والاجتماعي و التاريخي كان يتشابك ليلف حولها نسيجاً يكبل حركتها، و يحصرها في زاوية خانقة غالباً ما تفضي بها إلى الاستسلام» ([1]).

4/2- **الاغتراب عن الوجود المستقل:**

و يتمثل في فقدان استقلالية الذات و الاعتماد على الآخرين ليثبت الفرد ذاته، حيث يحدد "هيغل" هذا الاغتراب باعتماد الأفراد على الثروة التي يعتبرها بأنها هي التي تؤدي إلى الاغتراب عن الوجود المستقل.

4/3- **الاغتراب عن الذات:**

يأخذ مفهوم الاغتراب عند "ماركس" مفهومين و هما:

أ/ حينما يغترب العمل أو الناتج عن العامل، يؤدي إلى اغتراب الذات، لأن عمل الإنسان - في نظر ماركس - هو حياته، و بالتالي إذا اغتربت منه حياته، فإن ذاته تغترب عنه.

ب/ أما المفهوم الثاني عنده هو أن الإنسان تغترب ذاته إذا لم تفصح حياته عن سمات الحياة الإنسانية الحقة، و تتمثل هذه السمات في الفردية، و التمتع بالحساسية و الاجتماعية، واغتراب الذات يكون بنزع الإنسانية التي تتمثل في هذه الأبعاد الثلاثة (الإنتاج، الحياة الحسية، الحياة الاجتماعية).

أما اغتراب الذات عند "سارتر" فورد من خلال (الوجود و العدم)، ذلك أن الاغتراب عن الذات من خلال رؤية الآخر لي، التي تجعلني أشعر بموضوعيتي، أي وجودي و هذا الوجود يؤدي إلى تغريب قدراتي، لأن هذه النظرة و كأنما تجعلني شيئاً، و لهذا ينبغي أن تكون نظرة الآخر إلى طبيعتي من خلال الحرية، لأن قدراتي هي التي تحدد وجودي، هذا من جهة، و من جهة أخرى هو الاتفاق بين "سارتر" و "ماركس" في أن الإنتاج الدائب لذات المرء من خلال العمل هو السبيل إلى تحقيق الذات باعتبار العمل هو تموضع الذات و تحقيقها. و منه يكون تموضع الذات أساساً ظاهرة إيجابية، من خلالها تتطور حياة المرء و شخصيته و فرديته ، و هو كذلك يرى أن السيطرة على الناتج من قبل

[1] - خالد المصري، غائب طعمة فرمان (حركة المجتمع و تحولات النص)، م، س، ص: 128.

الآخر هو ما يؤدي إلى اغتراب الذات و أن قهر الذات يكون من خلال رد العلاقة بين المرء و ناتجه. و منه فإن الاختلاف بين "سارتر" و "ماركس"، هو أن مفهوم الاغتراب عند "ماركس" يرتبط بأوضاع اقتصادية و اجتماعية ينبغي القضاء عليها. إلا أن "سارتر" يرى أن الاغتراب أمر ملازم بصورة حتمية للتموضع في هذا العالم حتى و لو لم توجد هذه الأوضاع ، كما أن تركيز "ماركس" كان على الجانب العملي، في حين ركز "سارتر" على الجانب الفني الذي يراه أكثر تعقيداً، من الجانب العملي، وذلك من خلال علاقة الفنان بعمله([1]).

إن شعور المرء بأن البنية الاجتماعية بالنسبة إليه شيء آخر، حينها يشعر باغترابه عن ذاته، لأن الطبيعة الجوهرية للإنسان تقوم على العقل و الكلية، و الكلية لا تتحقق إلا من خلال الوحدة مع البنية الاجتماعية لأن الفرد حين يرفض أن يكون من تلك البنية الاجتماعية يحدث لديه ما يسمى بالاغتراب عن الذات، و الاغتراب عن الذات هنا يعني إخفاق الفرد في إدراكه للبنية الاجتماعية التي هي من خلقه؛ أي أن ذات الفرد المتموضعة هي التي تغترب عنه بفعل الاغتراب الاجتماعي أو الاغتراب عن الكل الذي يمثل له "هيغل" بالدولة التي تشكل كياناً واحداً ينتمي إليه الفرد، و هو يعني «انعدام المغزى الذاتي، و الجوهري للعمل الذي يؤديه الإنسان. و قد يكون الاغتراب في الذات مصحوباً بدوافع سياسية، و اقتصادية، و اجتماعية، و دينية. كل من هذه الدوافع قد تحيل الفرد إلى انفصاله عن ذاته»([2]).

أما على مستوى الدوافع فنجد الاغتراب قد جاء مصحوباً «بدوافع سياسية، واجتماعية ودينية و ثمة ملامح اقتصادية. يحدد هذه الدوافع التي تقذف الإنسان إلى براثن الاغتراب.. الخوف. و القهر، و الجوع في نظام فاسد يحكمه فئة من البغاة و المتسلطين الذين يعبثون بأقدار الشعب»([3])، و سنقدم مثالاً حياً على ذلك.

4/4- الاغتراب السياسي:

إن المفاهيم السياسية التي تسيطر على المجتمع، هي نفسها التي تسيطر على المفاهيم الاجتماعية، لأن النظام السائد هو الذي يفرض النظام الاجتماعي، و منه قد تكون الدوافع التي

---

[1] – ينظر محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، ، صص: 41-53.

[2] – حسن سعد، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة، م، س، ص: 21.

[3] – المرجع نفسه، ص: 158.

خلقت الإحساس بالاغتراب الاجتماعي، هي نفسها التي خلقت و ولدت الاغتراب السياسي، ومنه فالاغتراب لدى واسيني هو اغتراب فكرة و ليس اغتراب شخوص، إذ وجدنا أن الصراع يكمن في الأفكار، وغالباً ما نجد فكرتين متناقضتين تسيران على خط واحد، و في تناقض تام ومضاد، وهو ما نجده في "ذاكرة الماء"، و "سيدة المقام"، و سنركز على هذه الأخيرة، التي تقوم على فكرتين: فكرة الرصاص و القتل مثلاً و فكرة القانون، و لكن لمن تكون الغلبة؟ هل سيصل الراوي إلى هويته بالرصاص أم بمنطق القانون؟ و سأنقل مثالاً حرفياً للدلالة على هذا النوع من الاغتراب:

- «الدولة انسحبت من الحياة العامّة. الذين قاوموا تهديدات "حرّاس النوايا" و قدّموا شكاوى للأمن، قالوا لهم عوموا بحركم. في المرّة الثانية صمّموا على المقاومة. في المرّة الأخيرة جاءتهم جماعات الهداية و حرّاس النوايا. قالوا لهم غيّروا ونساعدكم على تغيير تجارتكم»([1]).

من خلال هذا المقطع نجد الراوي في حيرة من أمره لا هو مع من سماهم "بني كلبون"، ولا هو مع من هم ضد المسيرين الذين سماهم "حراس النوايا"، و منه فهو ضد أساليب الخوف والقهر و التقتيل و التجويع، و مصادرة الهويات، فلا هو مع هذا التيار و لا ذاك. و هذا التناقض بين الراوي و ذاته هو ما تقدمه لنا شخصية "مريم" المتناقضة في أفكارها حسب النصوص التي يقدمها لنا الروائي، إذ نجد هذا الاسم يتكرر في أغلب أعماله. فهل "مريم" تنطق بلسان حال المؤلف؟ أم هل هي المؤلف في حد ذاته؟

أغلب الظن أنها تحمل فكر المؤلف ومفهومه للعصر الذي يعيش فيه. إنها تعاود الظهور مرتدية أقنعة مختلفة، متعددة الاتجاهات، من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة. و منه فإن الدلالة الكامنة وراء هذا النص تدل على النظام السائد، و الفوضى التي عمّته في فترة التعدد، ليصبح هذا النظام غير صالح في نظر الراوي، لأنه لم يوفّر الأمن للشعب، و بهذا الانفصال الذي يكون بين الفرد و النظام، يكون هناك التمرد، و الذي تكون فيه الغلبة في الأخير للنظام، ليعلن الفرد عن اغترابه، لأنه سيهمش و يصبح ضحية النظام السياسي السائد.

4/5- الاغتراب الاقتصادي:

[1] - سيدة المقام، مص، س،ص: 13.

يأتي هذا النوع من الاغتراب نتيجة الظروف الاقتصادية السيئة التي تجعل الفرد يتيه عن المجتمع لتلبية حاجاته الملحة و هذا ما يدفع إلى الاغتراب، لأن تلبية الحاجات يكون بشتى السبل المشروعة و غير المشروعة. إن نشوء الاغتراب الاقتصادي جاء عبر «تضارب بعض الأنظمة الاقتصادية مما يداخل الفرد الإحساس بالحيرة و القلق المؤديين إلى الانفصال و من ثمة الاغتراب الاقتصادي» ([1])، و قد تمّ الإشارة إلى هذا من خلال علاقة الفرد بما ينتج.

و من النصوص التي يمكن أن نقدمها إشارة على سوء الحالة الاقتصادية، ما جاء في "نوار اللوز":

- «فالأولون، و هم صفاء السلالة، أكلتهم الزلازل و المجاعات و أمراض التيفوس التي اجتاحت بلدتنا الأولى ذات صيف، فمات الصغير و الكبير و حلّ القحط بالمناطق الرعوية. ركبوا البيداء و القفار. أكثرهم مات في الطريق عطشاً وجوعاً، هو و جماله و أغنامه. تفلحت شفاههم من كثرة الشمس المحرقة و أكل التين و شرب مياه العيون المالحة و الفلفل الأحمر المشوي على التنانير البدوية التي لا ينطفئ جمرها»([2]).

و من خلال ما جاءت به رواية "ما تبقى من سيرة لخضر حمروش":

- «أيه يا لخضر حمروش، ماذا يمكنني أن أقول.. هؤلاء مرتاحون على الأقل، و حتى أنت يا عود السيسبان، يومها وضعتك في حفرة ضيقة كانت قد أعدت سلفاً في أحد الوديان المهجورة.. **و كان الزمن زمن البرد و الجوع، والخوف**.. لا يستبعد داخل ذلك القفر، أن يكون ذئباً ما، قد أتى على ما تبقى من جثتك.. أو يكون أحد صغار هذه الذئاب المريضة، قد مرّ من هناك، على صهوة جواده، فأخذت بقايا عظامك حوافر الخيل، و الكلاب التي تصطاد أحلام الأطفال و الناس الفقراء..»([3]).

و هذه دلالة أخرى لاغتراب الفرد عن مجتمعه، نظراً لما آلت إليه البلاد من فساد، من سوء الحالة السياسية التي أثرت على الحالة الاقتصادية، و هي إشارات إلى المجتمع الرأسمالي الذي يلهث

[1] – حسن سعد، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة، م، س، ص: 21.

[2] – نوار اللوز، مص، س، ص: 15.

[3] – ما تبقى من سيرة لخضر حمروش، مص، س، ص: 13.

وراء جمع المال، و بالتالي الفوضى، و منه يعيش المجتمع في عزلة، و يكون هناك الاغتراب الذي يكون على نحوين: اغتراب سياسي. و اغتراب اقتصادي.

4/6- الاغتراب الديني:

إن الإنسان لا يشعر بهذا النوع من الاغتراب إلا عندما تظهر تيارات جديدة تبرز في المجتمع بفكر جديد، و هنا يشعر المسلم بالاغتراب الديني في الإسلام «نتيجة ظهور فئة من المفسرين أو المبشرين بفكر ديني جديد هو لا يبعد عن أي دين في شيء. و لكن قد يكون هذا الفكر مشوباً بالكثير أو ببعض البلبلات أو المغالطات مما يحدث شرخاً أو تصدعاً في المجتمع الديني التي رسخت في أذهان شعبه مفاهيم دينية محددة مما ينقسم هذا المجتمع على نفسه إلى فئات هم في الأصل يؤمنون بدين ما. و لكن لكل فئة في هذا الدين مفهومها الخاص، و يحدث ثمة شعور بهذا التخارج أو الاغتراب»[1] و هو ما نلحظه في رواية "سيدة المقام" من خلال "حراس النوايا" و "بني كلبون"، و اختلاف المفاهيم و الخرجات الدينية بين هذه الفئة و تلك. و انطلاقاً من هذا التحديد يظهر الاغتراب الديني.

إن الاغتراب ليس فعلاً إرادياً، لأن الإنسان لا يختار لنفسه الاغتراب، لأنه يبقى عاجزاً أمام العقد الذي فرض عليه من قبل السلطة، ذلك أن القوانين المفروضة على الفرد، لا تلبي حاجاته، ومنه فهي مرفوضة، و هنا يجد الفرد نفسه مغترباً، لأن الاغتراب هنا هو أن يسلم الفرد نفسه للسلطة الحاكمة سواء إرادياً أم لا إرادياً.

5- اغتراب الأدباء و الفنانين:

ذهب "هيلبيك" إلى أن الفن الحديث و المعاصر «فن مجرد، و أن الفن المجرد لا يختلف عن أي فن آخر و لكنه يتميز بأنه حقيقة نفسية تعبر بشكل أفضل عن الاتحاد بين الذات و الموضوع متمثلاً في العملية الإبداعية»[2]، و يرى أيضاً أن كلا من الفن الحديث و الفن المعاصر بجميع أشكاله «رد فعل للشعور المتزايد بالاغتراب و العزلة، و الفنان اليوم يعبر من خلال إبداعاته الفنية عن موقفه الوجودي»[3]، و في الروايات محل الدراسة نجد أن البطل عنده يسيطر عليه الإحساس الشامل

[1] - حسن سعد، م، س، ص: 23.

[2] - محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، ص: 100.

[3] - المرجع نفسه، ص: 100.

بالاغتراب، حيث كان ينظر إلى نفسه و رفاقه و المجتمع الذي يعيش فيه بكل رفض و كثير من الازدراء والمقت، لأن الاغتراب يرتبط بالتمرد ضد ما هو قائم، من خلال أزمة الإنسان الذي شوهته الحضارة الآلية المحتومة بقوانين المنافسة اللاإنسانية، مما يفرض عليه الإحساس بالقهر والعزلة، وبالتالي الاغتراب.

نجد في هذا الأعمال المثال الواضح للاغتراب، هذه الروايات التي تصور المرء المنعزل عن كل ما حوله جراء القهر و الاستلاب.

- « لم أكن أعلم أن هذا اليوم سيأتي. كلمة انزلقت في **لحظة اكتئاب**. ها هي ذي تعود بكلّ ثقلها لتعذب حضوري. آه يا بن أمي !! ما أحوجك في هذه المدينة المنهكة إلى لحظة. لحظة واحدة فقط يتعطل فيها فكرك. تفتح عينيك مثل حمّو الهبيل تتأمّل و لا تقول شيئاً. تنظر إلى الغادي و الرائح بعينين مدوّرتين من غير أن تقول شيئاً.

(...)

و يقول الجميع لنشرب على نخب الغائبين.و تستأنس أنت بقليل من الحزن و بالوجوه التي تحيط بك. ثم تغرقون في القهقهات و دخان السجائر و روائح النبيذ. ثم تتذكرون. تتذكّرون كل الوجوه التي مرّت على هذه الحياة بسرعة مذهلة»([1]).

إذا كان الاكتئاب مرضاً نفسياً، فقد أردفه السارد إلى نفسه. و لا شك أن هذا الاكتئاب و هذه العزلة المضروبة على الجميع، تجر إلى عدم الرضا عن الواقع. كما أن الأماكن لها أثر كبير على الشخصيات، من خلال الإشارة إلى "المدينة المنهكة"، و كذا إلى "حمّو الهبيل"، و هي إشارة إلى الجنون، حيث ربط بين المدينة المنهكة كمكان، و حمو كشخصية، و منه فإن هناك تداخلاً بين المكان و الشخصيات الموظفة، ذلك أن طبيعة المكان أشارت إلى نوعية الشخصية، وهي شخصية تعلن الاغتراب من أثر الجنون.

إن النص إشارة إلى الاكتئاب، و هي حالة من حالات الاغتراب الذي يعيشه الراوي، وهنا الروائي كذلك ينفس عن نفسه من خلال نصوصه الإبداعية التي تعكس رؤيته للحياة، و نلاحظ كذلك الإشارة إلى النبيذ في سياق هذا النص، حيث نجد إحدى الشخصيات بين الانتماء

[1] - سيدة المقام، مص، س، ص: 10.

والاغتراب. الانتماء في حالة الصحو، و الاغتراب في حالة السكر؛ أين تتذكر هذه الشخصية كل الوجوه التي مرّت على هذه الحياة، و هو ما نلاحظه كذلك في "أحلام مريم الوديعة":

- «اقترنت بهذا الرجل الغامض و المقعد، سنوات قبل أن يتهم بالخيانة الوطنية العظمى و تهربه خارج حدود الوطن، و هو يحفظ لها ذلك جيداً في صحوه، لأنه عندما يصاب بنوباته المزمنة، يعضّ على كل شيء يصادفه في طريقه كالكلب المسعور»([1]).

و في حالة اللاوعي هذه نجد هذه الشخصية غارقة في الاغتراب و العزلة، و تتذكر كل الأشياء التي مرّت، و هنا يُطرح السؤال التالي: هل الإنسان يكون نبيلاً عندما يكون بعيداً عن ذاته؟ أم أن الذات الحقيقية تبدو من خلال اللاوعي؟

إننا نجد واسيني من خلال كتاباته، لا من خلاله، لأن هذه الكتابات و الإبداعات هي التي تعكس ذات الروائي، و من خلالها نفهم الذي يريد قوله، و هو ما نلاحظه تقريباً في كل أعماله. رفض السارد للواقع المعيش. و هو في هذه الحالة يعيش حالة من الاغتراب، و سنقدم مجموعة من النصوص التي تقدم لنا ما في المجتمع من سلبيات و منغصات:

- «مع ذلك، تظل جرأته الكبيرة هي قدرته اللامتناهية على تحويل **الخوف و اليأس** إلى حالة رومانسية قصوى من الجنون. لكن الخوف كثيراً ما يجعل منا أناساً آليين نتحرك في أغلب الأوقات بشكل غرائزي»([2]).

- «غارق وسط الجمل المستعصية التي تقاوم لذة الانصياع و السهولة. إنها لحظة الانحدار نحو مدارج **الخوف**»([3]).

- «مي؟ يمّا... من أين لك بكل هذا البذخ الجميل من **الألم** و الأشواق التي دُفنت في عزّها؟ لماذا لم أنتبه طوال السنوات الماضي إلى أنّ عطبي كان هناك.
بالضبط هناك حيث الطفولة المسروقة، الأشواق المسروقة، المدينة المسروقة...
والذاكرة المنتهك و الحب المقتول؟ لماذا لم أعر كرّاستها النيليّة، قبل أن تودّع خريفها

[1] – أحلام مريم الوديعة، مص، س، ص: 25.
[2] – ذاكرة الماء، مص، س، ص: 56.
[3] – حارسة الظلال، مص، س، ص: 15.

الأخير، الاهتمام الذي يليق بها؟ هل هو الخوف من اللون المرّ الذي علق برؤوس أصابعها؟ أو بكل بساطة، الخوف من التسليم بموتها النهائي بعد سنوات من افتقادها»([1]).

- «لا شيء أجلب للخوف مثل شعورك بالإهمال و أنّك قد نّسيت كأيّة آنية أنيقة كانت تزوّق الدار و عندما انكسرتْ لُملمت ثم وضعت في الركن حتى اندثرت نهائيّاً. موت المنفى أهون من النسيان القاتل في أرضك»([2]).

- «من أين يأتي هذا الخوف المسحور؟ من أين ينفذ هذا السر؟ من أين تأتي رائحة الموت و الكآبة؟ حاولت كلّ شيء، لكن من المستحيل عليّ الانتصار على عالم بلا قلب. سأعود إلى وحدتي المحزنة»([3]).

- «يا الله من يطفئ هذه الكآبة التي تأكل بؤبؤ العين و نبض القلب»([4]).

- «في لحظة ما، رأيت كتلة خوف ثقيلة، تذوب على وجهه، فيتصبب عرقاً، أصفر كقشرة الليمون.. أكيد أنه أحس بنفسه فاشلاً أمام هؤلاء الناس؟؟ وإلا لماذا كل هذه التحولات الغريبة.. يعرف جيداً ساعة موته، و مع ذلك فهو مصر على المغامرة»([5]).

مع هذه النصوص يأتي الحديث عن الاغتراب مقترناً بالخوف و اليأس، و الألم، و المنفى، حيث تقاسي الذات عذاب الوحدة، و الغياب، و البعد عن الأحبة، و قد صوّر الكاتب ذلك من خلال هاجس الموت، و الشعور بالخوف، و منه فإن الاغتراب الذي يذهب ضحيته الفئة الكبرى من الشعب هو اغتراب اقتصادي، فالشعب هنا مغترب، لأن هذا النوع من الاغتراب يأتي جراء إفساد الواقع بكافة مناحيه، و جوانبه.

و قد ذهب صالح مخيمر إلى أن «الاغتراب هو اغتراب عن المعنى المتمثل في الهدف و القيمة باعتبار المعنى هو البعد الصميمي للوجود الإنساني. و غياب المعنى هو الذي يعطل الحركة

---

[1] – سوناتا، مص، س، ص: 21.

[2] – شرفات بحر الشمال، مص، س، ص: 71.

[3] – سيدة المقام، مص، س، ص: 15.

[4] – فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، مص، س، ص: 36.

[5] – ما تبقى من سيرة لخضر حمروش، مص، س، ص: 22.

الدياليكتيكية(*) بين الذات و الواقع. و الانسحاب من الواقع يمثل نمط الاغتراب الاحتلالي عند العصابيين و الذهانيين، بينما الالتصاق بالواقع على حساب الذات يمثل نمط الاغتراب السلبي»([1])، عند رجل الجمهور، و أن تحقق الدياليكتيكية بين الذات الفردية و الواقع الخارجي هو ما يؤدي إلى نمط "الاغتراب الإيجابي" عند الفنان و العالم. فالفنان يعزف عن الواقع ليلوذ بإبداعاته الفنية ثم سرعان ما يعود إلى الواقع.

الاغتراب النفسي - حسب مخيمر- عند المبدعين في مجالات الفن نظرة إيجابية. فعزلة الفنان في أغلب الأحيان عزلة إرادية ذات طابع إيجابي، إذ تبيح له هذه العزلة العودة إلى ذاته ليحقق هويته، من خلال إبداعاته التي تساعده على تجاوز اغترابه، ليعود من جديد إلى اغترابه بعد أن يتجاوز عمله الفني هذا، و بالتالي فهو مطالب بعمل آخر ليخرج من اغترابه، و هكذا لا ينقطع عمل الفنان إلا قليلاً، لأنه يسعى دائماً لأن يتجاوز اغترابه، و منه عُدَّ هذا الاغتراب اغتراباً إيجابياً. إذ لا خلاص له من ذلك الاغتراب إلا بعمل إبداعي جديد، و هو فعلاً ما نجده عند واسيني من خلال أعماله من حيث الكم و الكيف.

إن الفنان يحقق ذاته بإنتاجاته الإبداعية، و هو السبيل للخلاص من الاغتراب، فالعمل «الفني يشبع لدى الفنان الحاجة إلى الإنجاز و تحقيق الذات. و لكن الإحساس المكتمل بالهوية أو الذات لا يكتمل إلا مع الاتصال و النفاذ إلى الآخر المتلقي؛ أي الجمهور العام و استحسانه لأعمال الفنان و نتاجاته الإبداعية، مما يحقق وجود الذات و عدم اغترابها، و هنا نشير إلى أن العملية الإبداعية لا تكتمل لدى الفنان إلا بتلقي الآخر لهذا الإنتاج الإبداعي و استحسانه.حينئذٍ فقط يتحقق التواصل بعد التنافر و الاغتراب ([2])، إلا أن هناك من يرى أن الاغتراب هو سمة أصلية للوجود الإنساني، و لهذا «يصعب مغالبته أو قهره بل ينبغي أن تعمل على ذلك، فبدون الانفصال المؤقت عن الذات و الواقع ليس بالإمكان أن يحصل الإنسان على وحدته الحقيقية، و إن صحّ ذلك فمن

---

* - ديالكتيكي DIALECTIC: تعني فن النقاش و المناظرة، و من ثم، بالاستنتاج تحري الحقيقة عن طريق النقاش. ينظر تفصيل ذلك في ريموند وليمز، الكلمات المفاتيح، م، س، ص: 112.

[1] – محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، ص: 116.

[2] – ينظر محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، صص: 117-120.

الصحيح أيضاً أن يمكن تجنب الجوانب السلبية للاغتراب و العمل على خفض التوتر الناشئ عن بعض مشكلاته»([1]).

6- الاغتراب و الإبداع:

ذهب أمثال "هيغل" و "شيلر" إلى أن، الفن هو الذي يستطيع أن يقضي على الاغتراب، لأن الإنسان يرى ذاته من خلال الفن، و لأن الفن تعبير عن الحرية، و تحقيق الذات. و منه يتلاشى الاغتراب، لكن هذه القضية بالنسبة للفرد المبدع أو الفنان، أما بالنسبة للمجتمع، وخاصة مجتمعنا المعاصر، مجتمع العولمة حيث سيطرة القطب الواحد على العالم و التحكم فيه، و في مقدراته، و ذلك على حساب الشعوب المستضعفة التي يسودها الشعور بالظلم و القهر، و الحرمان و فقدان الإحساس بالهوية، و هو عين ما نسميه بالاستلاب أو الاغتراب، و لا علاج لهذه الظواهر التي تؤدي إلى فقدان الذات سوى احتضان المواهب الإبداعية، و الاهتمام بالفن، و خاصة في المجالات الأدبية، و لاسيما الرواية التي تبعث فينا الشعور بالذات، مما يعيد إلينا التوازن المفقود والارتباط بالأصول، ذلك لأن الفن يحقق لنا:

- المصالحة بين الذات و الواقع، من خلال تعبير الإنسان عن هويته و موقفه من العالم والوجود.
- الشعور بالاستمتاع من خلال القراءة التي تتيح للقارئ تحقيق رغباته المكبوتة.
- دور الفن في التغيير و التأثير.
- يلعب دور إبراز الذات من خلال الإبداع، و من خلال التعبير الحر عن الأفكار، والانفعالات، لأن تحضّر الأمم لا يقاس بالتقدم التكنولوجي فقط، و إنما كذلك بالقيم الجمالية و الفن الرفيع، لأن اللغة ليست أداة للترفيه والطرب، و إنما هي سلاح لمحاربة التخلف والغيبوبة([2]).

إن اهتمامنا اليوم بالأعمال الأدبية، و حاجتنا إليها مرده إلى اغتراب الإنسان المعاصر، باعتبار الفن شكلاً ضرورياً من أشكال المصالحة بين الذات و الواقع، ذلك أن استحسان الجمهور لأعمال المبدعين هو ما يحقق لدى المبدعين قهر الاغتراب من جهة، و الزيادة في الإبداع من جهة ثانية، و لا يتم ذلك إلا بتركيز المتلقين على أعمال المبدعين، هذا التركيز هو الذي يزيد من إنتاج المبدعين باعتبار الناتج الإبداعي هو الذي يحقق الذات و يسمو بها عبر استحسان الجماهير لنتاجات

[1] - المرجع نفسه، ص: 10.

[2] - ينظر محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني، م، س، صص: 14-15.

الفنان المبدع. لأنه بدون هذا الاستحسان لا يتحقق التواصل المنشود بين الذات و الواقع، كما أن الاغتراب الذي يعيشه الفنان ليس سلبياً، و لكنه إيجابي ما دام أنه يعمل على الإبداع. لأن الفنان ليس كغيره من الناس، فهو يستطيع أن يتجاوز اغترابه من خلال أعماله الفنية، التي تعمل على خلق المتعة الجمالية بفعل تراكمات الخيال لديه، و أن العمل الفني بالنسبة للفنان تحقيق للذات، حيث يرى فيه الفنان نفسه، و هذا هو المقصود بتحقيق الذات، و هو عند الفنان يحيى و يموت؛ يحيى عندما يتوقف الفنان عن الإنتاج. و يموت بعد الإنتاج، و خاصة إذا استحسن الجمهور أعمال المبدع. إذن فهو «سمة أصلية في وجودنا البشري، و شعور طبيعي لدى كل من يفكر و يتأمل ويخرج من وقت لآخر من دائرة الاهتمامات اليومية الجزئية ليلاحظ و يكتشف و ينقد ليأخذ موقفاً إيجابياً مما يدور حوله»([1]).

1- واسيني بين الاقتراب و الاغتراب:

«أوف. أشعر بأن هذا اليوم استثنائي و عليّ أن أقوم بكل الترتيبات الممكنة للخروج من هذه الحفرة و القيام بمهامي الاعتيادية. المرور على الجامعة، المطبعة، الحوار مع نادية...»([2]).

الاقتراب هنا هو مباشرة الراوي لعمله في الجامعة، فعمله في الجامعة هو ما يقهر الاغتراب لديه. إن الإشارة إلى الجامعة، هي إشارة إلى عمله. أما الإشارة إلى المطبعة فهي إشارة إلى إبداعه، و عدم انقطاعه و انفصاله، و خاصة بعد استحسان المتلقين لأعماله الروائية، حيث يُعتبر فارس الرواية الجزائرية بامتياز، و أنه كلما اغترب اقترب، بكثرة إنتاجه، إنه الإنتاج الحق الذي يدفع فينا الخبرة، و التساؤل، و بالتالي الاستحسان، و هو ما يجعله يقترب منا، فالسلاح وحده لا يصنع القوة، و أن «الإنسان القوي القادر هو الإنسان الذي يمارس حريته و يملك سيادته على نفسه ويستطيع أن يصنع ذاته على نحو منتج مبدع» ([3]).

لقد عبّر واسيني عن أزمة المثقف، انطلاقاً من كتاباته التي تشير إلى قهر السلطة للمثقف، بالتجاوز و التهميش. و منه فقد مكننا مفهوم الاغتراب من اكتشاف الكثير من الجوانب الفكرية

---

[1] - المرجع نفسه، ص: 135.

[2] - ذاكرة الماء، مص، س، ص: 48.

[3] - علي حرب، فخ الهوية، من كتاب تساؤلات حول الهوية العربية، م، س، ص: 37.

والروحية لدى واسيني فضلاً عن الجوانب الاجتماعية و النفسية و الثقافية، و سنبرهن من خلال دراستنا على أن «موضوع الاغتراب كان موضوعاً أصيلاً و فريداً لتلك العبقرية الأدبية و الفكرية الفذة، و سنحاول بأسلوب نقدي يصبو إلى أن ينفذ إلى أغوار معاناتها الفلسفية، و الروحية، و أن نؤكد أن الاغتراب هو سمة من سمات الفنان و الشاعر و الكاتب و المؤرخ، بل هي محطة لروحه، و حياته لابد أن يتوقف عندها بين فترة و أخرى»([1]).

إن رؤيا المبدع هنا تتعارض مع رؤيا السلطة، ذلك أن السلطة دائماً ترغب في أن يكون المبدع بالنسبة لها بمثابة العبد من سيده، و هذا ما لا يرضاه المثقف الذي تمارس عليه كل أشكال القهر والتهميش، و الذي يسعى بدوره إلى تجاوز هذا التهميش، و الوقوف أمام غير المقبول والمرفوض، و قد ذهب إليه "الكركي" الذي يقول: «إذا وقع الخلط، و تنازل الكاتب عن استقلاله وحريته، و صار كاتباً ديوانياً، و وظيفياً، و إعلامياً ليضمن لنفسه مكاناً في الحاشية، وقع في الخطأ القاتل»([2]) و هو ما لم يقع فيه الروائي بل ظل ضد كل أساليب التجاوز، و ضد كل التيارات التي تقهر المثقف، و نلاحظ ذلك في أعمال الكاتب التي كانت بمثابة الضد لكل ما من شأنه الحط من قيمة المثقف. و هو ما نلاحظ كذلك في غربة واسيني جسماً، و اغترابه روحاً، الجسم من خلال أسفاره، و روحاً من خلال كتاباته:

- «كان اسمها فتنة.

نهايات ديسمبر. منذ عشرين سنة بالضبط كانت هنا، على حافّة هذا الرمل المنسيّ، قبل أن تنطفئ بين موجات بحر الشمال. ما الذي أيقظها فيّ الآن و أنا على عتبة التلاشي؟ شيء ما يدعوني للتفكير فيها بعمق وحزن، شيء ملتبس لا أعرف سرّه سوى أن أمطار أمستردام في هذا الوقت بالذات تكون باردة جداً.

الآن، كل شيء هدأ، و نزل الضباب على مدينة الجزائر للمرّة الأخيرة بعد أن كفّن الشوارع والساحات و الحارات الباردة و الزوايا الخلفيّة، و استسلمت الروح المثقلة بأيام ديسمبر الأخيرة.

أنا كذلك أريد أن أرتاح قليلاً و أن أشفى منكِ بالمنفى و بقليل من شطط الكتابة. لقد تعبت. بالفعل تعبت و لم أعد قادراً على التحمّل، لقد صرت هشّاً مثل غيمة.

---

[1] – محمد فاتح زغل، سلطة المثقف بين الاقتراب و الاغتراب، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دط، 2006، ص: 119.

[2] – المرجع نفسه، ص: 135.

ياه؟ ما أصغر العالم. هكذا دفعة واحدة من النسيان إلى مهاوي بحر الشمال البعيد و أخيراً إلى شمس المحيط الهادي المنداة بعرق الشجر و رائحة الملح؟ لا؟ لا بدّ أن يكون في الأمر التباس ما»([1]).

إن غربة واسيني عن وطنه و سفره إلى أمستردام أو غيرها من المدن لم ينسه الوطن الجريح الذي ظل يكتب عنه، و يرفض كل أشكال التجاوز و التهميش، و يبدو أن السفر هنا هو الذي «يفتح الفضاء في وجوه البشر، كأنه وعد بالسعادة، و لربما كانت الطريقة المستعملة في الغالب، من لدن الروائيين، في التعبير عما هو "خارق" بالمكان "البعيد" صادر عن اعتقاد (...) أنه لا يمكن أن "يحدث لنا شيء"؛ أي جديد و محمس، إلا في مكان آخر»([2]) و هو ما نلاحظه كذلك في "ذاكرة الماء"، من خلال أسفاره الكثيرة و غربته عن وطنه في فترة من فترات التجاوز.

- «لكن بين سنتي البدء و الانتهاء، كان هذا النص يكتب داخل القساوة و البرودة و الحياة والسر والمنفى، من الجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة، عنابة إلى الرباط، طنجة، المحمدية، الدار البيضاء، إلى تونس، زغوان، قابس، المونستير إلى عمان، الربدة، بترا إلى دمشق، إلى باريس، ليون، مارسيليا، أفنيون، إلى بروكسل إلى أمستردام إلى روما، صالرنو، ميلانو، جينوفا، باري، ألبيروبيلو إلى الجزائر مرّة أخرى»([3]).

كتب واسيني دون تحرج و لا خوف. كتب ضد هذا و ذاك، لأن هدفه الأمن والاستقرار، و عدم تكميم الأفواه، لا السعي وراء المناصب، و لأنه يعرف تمام المعرفة أن البحث عن المنصب يفقد المبدع قيمته بينه و بين نفسه، و بينه و بين متلقيه، و هو ما أشار إليه "الكركي"، الذي يقول: «إن قبول المثقف لموقع في الحكم يجب أن يظل مشروطاً، بالاتفاق بين رؤيته، و حلمه، وبين ما لدى النظام السياسي من رؤى و تطلعات، و شروط الاتفاق و قاعدته محصورة في ضمانات الحرية و الديمقراطية و كرامة الإنسان، و إلا صار موقعه حوار الثقافة و السلطة بعيداً عن موقع الشريك لصالح

[1] – شرفات بحر الشمال، مص، س، ص: 7

[2] – جنيت و آخرون، الفضاء الروائي. تر: عبد الرحيم حزل، م، س، ص: 122.

[3] – ذاكرة الماء، مص، س، ص: 7.

موقع السيد»([1])، و في رأينا أن هذا لا يمكنه أن يتحقق بل هو ضرب من الطوباوية، لأن السلطة لا تقبل بالمثقف إلا إذا كان عبداً، «حيث نلاحظ أن تشوهات السلطة، وتكريسها لحس الاغتراب و تقوقعها داخل واقع مستلب تحكمه إيديولوجيات قمعية لا يمكن إلا أن يسهم في إعادة إنتاج هذا الاغتراب داخل نصوص أدبية ملتبسة» ([2]).

أما اغتراب الروح، فهو حين لا يكتب واسيني، إلا أنه لم يغترب روحياً باعتباره تقريباً لم يتوقف عن الكتابة منذ بدأ، و باعتباره يكتب في كل ماله علاقة بهذا الشعب، و بهذه الدولة، وحتى فيما يخص الأمة العربية.

كتب واسيني معظم رواياته، و هو مؤمن بخلود القيم الروحية المحكومة بلذة العطاء. فكتب أخصب مؤلفاته التي جاءت مشبعة بالعطاء راسمة بذلك الحدود السياسية، و الثقافية، و الاجتماعية للمثقف المقهور، و خير ما يمثل ثقافة الخوف و الرعب و العذاب هو أعماله:

- «و ها أنذا أستيقظ في هذا الفجر الاستثنائي باكراً. أبحث عن شيء غامض مثل محكوم عليه بالإعدام لم يتبق أمامه إلا ليلة واحدة و مصرّ على إيجاد تفسير لخوفي داخل هذه الكومة من القصاصات والملاحظات التي كتبتها أو جمعتها من صحف مختلفة في فترات متفاوتة»([3]).

- «سنتان من الخوف. و هل هما سنتان؟

طوال هذا الزمن النفسي الذي لا يعد و لا يحصى كنت أحلم بشيء صغير. صغير جداً و لكنه بالنسبة لي كبير، قبل أن تسرقني رصاصة عمياء، هو أن أنهي هذا العمل، نكاية في القتلة.

و ها أنذا بعد هذا الزمن الذي لا يساوي الشيء الكثير أمام الذين فقدوا أرواحهم، أخرج للنور مثقلا برماد الذاكرة، أمشي على الملوحة و الماء وفاء لهذا الماء و تلك الذاكرة»([4]).

---

[1] – محمد فاتح زغل، سلطة المثقف بين الاقتراب و الاغتراب، م، س، ص: 135.

[2] – الطاهر روابنية، المونولوجية و مأساوية الذات في رواية مصرع أحلام مريم الوديعة، من كتاب الأعرج واسيني و شغف الكتابة، تنسيق محمد داود، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية (CRASC)، وهران، دط، 2005، ص: 87.

[3] – ذاكرة الماء، مص، س، ص: 50.

[4] – ذاكرة الماء، مص، س، ص: 9.

كتب واسيني و هو يعرف ما سينجر عن هذه النصوص من مشاكل. و مع هذا فقد كتب ضد كل من سوّلت له نفسه أن يزعزع استقرار هذا الشعب، و هذه الأمة.

لو نظرنا إلى أعمال هذا الروائي لوجدنا أن تيمة الاغتراب بارزة على كافة أنواعه، سواء أكان اغتراباً اجتماعياً، أم سياسياً، أم نفسياً، أم اقتصادياً، و هو ما يتمثل في أساليب القهر والتجويع و التخويف و التهميش و التجاوز...الخ، المهم أنه تلك الأساليب التي لا تدع الفرد يعيش حياة عادية. و من خلال الأمثلة التي تمّ تقديمها نجد أن الراوي يعبر عن الفوضى السائدة في المجتمع، و هي في حقيقة الأمر فوضى سياسية و اقتصادية، و هذا راجع إلى ضعف التخطيط العلمي الذي يلبي رغبات المجتمع.

انعدام الثقة. واحدة هي الأخرى من مولدات الاغتراب، لأنها تأتي من ضعف الذات الذي يولد الإحساس بالاغتراب. إن الهروب من الذات و من الآخرين يولد العزلة و الانفرادية، و هو بدوره ما يؤدي إلى تأصيل مفهوم الاغتراب الناتج عن انعدام الثقة، و هو ما يجعل الفرد يشعر بالاغتراب داخل المجتمع الذي ينتمي إليه، كما أن التفرد؛ أي أن يتفرد الفرد منّا باختصاص ما، يولد لديه الشعور بالوحدة و العزلة، إذ ليس هنا ما يربطه بالآخرين، و العزلة هنا هي عدم الاندماج الفكري في المجتمع، إذ لا يجد الفرد نفسه منعزلاً بأفكاره الخاصة، و هو ما يوسع الهوة
بين الفرد و المجتمع[1]، و هو ما تقدمه لنا "أحلام مريم الوديعة":

- «و ها أنذا أشعر حقاً بالوحدة القاتلة مع مريم و وجه أختها الأسمنتي الذي حفرته ثقوب مرض الجذام»[2].

عندما نشير إلى اغتراب الأفكار لدى الراوي، فإننا نشير إلى العلاقة بين الإنسان و مكوناته الفكرية، و هنا لابدّ أن نوضح جزئية هامة، و هي أن الاختلاف الموجود بين الأفكار قائم على ألسنة أفكار، و ليس على ألسنة شخوص، و منه نجد أن هناك انفصالاً آخر بين الصفات والأفكار، فالذي يتحاور في النصوص الروائية هو الفكرة و ليس الصفة، و من ثمة يحدث نوع من الاغتراب بين الصفات و الأفكار.

إننا و نحن ندرس هذه الأعمال نفاجأ في أغلب الأحيان بالكثير من المفهومات التي تأتلف تارة و تختلف أخرى، و تنفتح على النظر التأسيسي ثالثة، و تتجاوز رابعة. و قد حاولنا إيجاد

[1] – ينظر حسن سعد، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة، م، س، ص: 13.

[2] – أحلام مريم الوديعة، مص، س، ص: 25.

دلالات الاغتراب في إطار الإبداع، ذلك لأنه، «عشق التجديد، تغريب المتلقي، و إبقاؤه منفصلاً حيث لا يحدث الاندماج الانفعالي بالنص. الاغتراب عن الذات لحظة تشكيلها صورة العالم. نقد الآخر الذي يعيش خارج الجلد، يجعل شيئاً ما ملكاً للآخر، انعكاس لزيادة الوعي على السلوك والهيئة، شعور بخلل ما.. نقص في المغترب يقابله اكتفاء أو زيادة في الآخر، أو زيادة في المغترب يقابلها نقص في الآخر» ([1]). و انطلاقاً من هنا فأن الروائي "مارسيل بروست" قد انتبه إلى أن «"شخصيتنا الاجتماعية هي من خلق أفكار الآخرين"، و لأن الأنا محتوم عليها أن تتواصل مع الآخرين، و لا سبيل إلى تواصل مثمر دون إدراك صحيح من الطرفين لبعضهما، و دون احترام الوجود الخاص بكل واحد منهما، أي دون تحقيق الاعتراف ببعضهما كشخصين مستقلين ومتفردين و متمايزين و متطلعين باستمرار إلى آفاق المستقبل»([2])، و لهذا فأن عبارة الاغتراب أسئلة غامضة لا أجوبة لها. «الاغتراب طغيان الحرية على منظومة استيعاب المبدع، فقدان الحرية نتيجة القناعات الفيزيقية، أو الميتافيزيقية، الجمالية، و الميتا جمالية، خوف من الموت أو رغبة فيه، نهم للحياة أو زهد فيها»([3]).

و من خلال دراستنا للاغتراب سواء في جانبه النظري أم التطبيقي يتبين لنا أن الشخصيات التي عاشت في المدينة تقريباً كلها تعاني من الاغتراب، و الوحدة و الاكتئاب و القهر، و الهامشية. وهو ما يتوافق و الصفات التي يسقطها الكتاب على المدينة بأنها رمز للوحشة و الموت، تحول كل من يعيش فيها إلى ميّت و هو حيّ، أو إلى قزم و هو طويل...الخ.

و في الحقيقة أننا لا نجد هذا الموقف العدائي الحاد من المدينة عند واسيني وحده، و إنما نلاحظه عند كل الكتاب تقريباً، الذين يتعاملون معها بعيداً عن أصولهم الطبيعية، و عن انتماءاتهم و واجباتهم الاجتماعية و كأنما لم يكونوا ينتمون إليها. و الحق أننا نجد النماذج الكثيرة الممثلة للاغتراب، و من ذلك شخصية "مريم" التي ترددت في الكثير من رواياته كما سبق و أن ذكرنا، ولعل ذلك ضرباً من سمات الفردية التي تسم المدينة، و التي يترتب عليها انفصال الفرد عن الآخرين، و رفضه للواقع المعيش.

---

[1] – عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحداثوي و الصورة الفنية، م، س، ص: 300.

[2] – عبد الرحيم تمحري، تقنيات التواصل، م، س، ص: 76.

[3] – عبد الإله الصائغ، م، س، ص: 300.

و أخيراً و بهذا فإننا نكون قد قدمنا تقديماً نظرياً، و تحليلاً تفصيلياً لكيفية تحديد اغتراب الفضاء من خلال مدينة أمستردام، و مدن أخرى جاءت في المتن. و فضاء الاغتراب الذي تمَّ التركيز عليه بشكل كبير، و مدى تنوع الأبعاد التي اتخذها الاغتراب و التي تنوعت ما بين البعد السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي...الخ، و هذا ما يدل على ثراء هذا النوع من الفضاء الذي تقدمه الرواية.